الدعامات الرئيسية للدولة اليهودية

١- الهجرة البشرية

(١٨٨١-١٩٨١)

بقلم نبيل شبيب

كانت الدعامات الرئيسية للدولة اليهودية في فلسطين -ولا تزال- هي الهجرة البشرية ، والأرض ، والمساعدات الخارجية ، والدعاية الصهيونية العالمية ، وفرقة العرب وتأخرهم .

وأخطر هذه الدعامات -على خطورتها جميعاً- هي الهجرة البشرية اليهودية من مختلف أنحاء الأرض إلى فلسطين الواقعة في قلب العالم العربي والإسلامي . فالهجرة هي التي تمدّ إسرائيل بالعنصر البشري الضروري لبقائها واستمرارها وتقدمها فوق الأرض التي تحتلها وتستغلها بالأموال المتدفقة عليها من أثرياء اليهود في العالم ومن المــصادر الغربيــة الرسمية وغير الرسمية تحت تأثير الرأي العام المشحون بدعاية الصهيونية العالمية .. يعينها على ذلك الوسط الذي يحــيط بها وليس فيه ما يردعها ردعاً كافيا .

وقد سهرت المنظمات الصهيونية طوال المائة عام الماضية على تنظيم هذه الهجرة وتمويلها وتشجيع يهــود العــالم عليها وإيجاد الأجواء المناسبة لها اعتماداً على (اللا سامية) وعلى النفوذ اليهودي الصهيوني العالمي .

وشهدت المائة عام الماضية ثماني موجات لهذه الهجرة تتلخص في الصورة الآتية[1] :

الموجة الأولى : من ١٨٨١-١٨٩١م ، وبلغ حجمها (٣٠) ألف مهاجر معظمهم من روسيا القيصرية .

الموجة الثانية : من ١٩٠٥-١٩١٤م ، وبلغ حجمها (٤٠) ألف مهاجر معظمهم من روسيا القيصرية أيضا .

الموجة الثالثة : من ١٩١٩-١٩٢٢م ، وبلغ حجمها (٤٠) ألف مهاجر من مختلف الدول الأوروبية ، وكانــت بتأثير وعد بلفور في الدرجة الأولى .

الموجة الرابعة : من ١٩٢٤-١٩٣٠م ، وبلغ حجمها (٨٠) ألف مهاجر كان معظمهم من بولندا .

الموجة الخامسة : من ١٩٣٣-١٩٤٧م ، وبلغ حجمها (٢٨٠) ألف مهاجر ، معظمهم مــن بلــدان أوروبــا الوسطى وكانت بتأثير النازية في ألمانيا وتحت ظل الانتداب البريطاني في فلسطين كما أنها تمت على فترة أطول مــن الزمن .

الموجة السادسة : من ١٩٤٨-١٩٥٢م ، وبلغ حجمها (٧٠٠) ألف مهاجر ، كان نصفهم من أوروبا وأمريكا الجنوبية والنصف الآخر من البلدان الآسيوية والأفريقية ، ومعظم هؤلاء من البلدان العربية ، وقد جاءت هذه الموجــة بعد تأسيس الدولة اليهودية .

الموجة السابعة : من ١٩٥٦-١٩٥٨م ، وبلغ حجمها (١٥٠) ألف مهاجر ، كان حوالي ثلثهم مــن أوروبــا وأمريكا الجنوبية وأكثر من الثلثين من آسيا وأفريقيا ، وجاءت هذه الموجة بعد حرب قناة السويس وفتح خليج العقبة أمام الملاحة البحرية الإسرائيلية .

الموجة الثامنة : من ١٩٦٧-١٩٧٠م ، وبلغ حجمها (١١٠) آلاف مهاجر كان معظمهم من أمريكا الجنوبية ، وقد تمت بتأثير النكبة الثانية عام ١٩٦٧م .

و لم تفتر الهجرة ما بين هذه الموجات إلاّ أنها كانت أقل قوة . ونعاصر في هذه السنوات الموجة الكبرى التاســعة التي تعتمد اعتماداً رئيسياً على يهود الاتحاد السوفييتي . وهي بدون شك من أخطر موجات الهجــرة اليهوديــة إلى فلسطين ، ذلك أن الدولة اليهودية -حتى في حدود عام ١٩٦٧م التي صرّح معظم الحكام العرب اليوم باســتعدادهم للاعتراف بوجودها ومنحها بذلك (صبغة شرعية) لأول مرة- لا يمكن أن تستوعب هذه الأفواج البــشرية المتدفقــة عليها إلاّ إذا حققت ما تقوم به الآن بالفعل من ترسيخٍ لاغتصاب (الأرض) ..

ومن يتأمل في توزع اليهود في العالم اليوم يجد أن التجمع الأكبر لهم في الولايات المتحدة الأمريكية (٦ ملايــين نسمة) يليه تجمعهم في الاتحاد السوفييتي (حوالي ٣ ملايين يهودي)[٢] .

والمعروف أن اليهود الأمريكيين لا يرغبون في الهجرة إلى فلسطين بشكل عام لأسباب عديدة أبرزها اقتــصادية . وهم يشكلون العصب المالي والإعلامي لإسرائيل . ومن المعروف أيضاً أن يهود آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية قلائل نسبياً ولا يمكن الاعتماد عليهم في الموجة الكبرى الحالية للهجرة اليهودية . وهكذا لا يبقى أمام اليهودية العالمية سوى يهود الاتحاد السوفييتي من أجل الهجرة إلى إسرائيل

ولقد أدرك القائمون على تخطيط الهجرة هذا الأمر في وقت مبكر ، وهيّأوا له الأسباب الدعائية والإعلامية منــذ سنوات عديدة تعود إلى الستينات

واعترضت جهودَ إسرائيل صعوبةُ الاعتمادِ على (النغمة القديمة) والقولِ بعداء الاتحاد السوفييتي للعنصر السامي ، فقد كان اليهود يشغلون مع مطلع الثورة الشيوعية ولِسنينَ عديدة مناصب رئيسية عليا شملت (مجلــس الــسوفييت الأعلى) و(مجلس الوزراء) و(كادر السفراء) في البلدان الأجنبية .

كما أن اليهود لم يواجهوا في الاتحاد السوفييتي اضطهاداً ما على صعيد العلم والتعليم وشغل المناصب الهامــة في إطار التقدم التقني للاتحاد السوفييتي ، حتى أن نسبة العلماء اليهود إلى مجموع العلماء السوفييت تصل إلى (٦%) بينما لا تزيد نسبة اليهود إلى مجموع السكان على (١%)[٣] .

وإذا كان يوجد اضطهاد ديني في الاتحاد السوفييتي فهو لا يقتصر بحال من الأحوال على اليهود بل عانى المسلمون منه –ولا يزالون يعانون– ما لا تعانيه أية أقلية دينية أخرى .

ومع هذا كله فقد آتت الحملة الدعائية الصهيونية تحت شعار : (اضطهاد اليهود في الاتحاد السوفييتي) ثمارَهــا في العالم الغربي ..

ومما يؤسف له أنه رغم الأصوات المنذرة والمحذرة من جانب بعض الجهات العربية والفلسطينية فإنّ القائمين على الحكم في العالم العربي لم يواجهوا المخططات الصهيونية بمخططات قوية تؤدي بها إلى الفشل .. مما كان يحسبه المــرء حدّاً أدنى للدفاع عن (المصالح الوطنية) في إطار (الصداقة) مع الاتحاد السوفييتي بل و(التحالف) معه في كــثير مــن الأحيان .

وهكذا بدأت الموجة التاسعة للهجرة اليهودية في أعقاب الموجة الثامنة مباشرة ، ويخطط لاستمرارها عشرة أعوام على الأقل ، أي حتى عام ١٩٨١م .

ويبين الجدول الآتي[٤] حجم هذه الموجة ونسبة اليهود السوفييت فيها إلى مجموع المهاجرين :

عام	المجموع	السوفييت	النسبة %
١٩٧١	٤٢ ألفا	١٩ ألفا	%٤٥
١٩٧٢	٦٥ ألفا	٣٢ ألفا	%٤٨
١٩٧٣	٥٥ ألفا	٣٤ ألفا	%٦٧
المجموع	١٦٢ ألفا	٨٥ ألفا	%52,5

وترتفع نسبة الشباب في هذه الموجة من الهجرة البشرية بشكل ملحوظ : (٦٠% دون ٤٥ عاماً) كمـــا ترتفـــع نسبة العلماء والجامعيين بين المهاجرين السوفييت بالذات فتصل إلى ٣٥% أي ما يعادل (٢٨) ألف عالم وجـــامعي خلال ثلاث سنوات .

وترددت عقب حرب تشرين أول ١٩٧٣م الأقوال التي تتنبأ بانخفـــاض نـــسبة الهجـــرة إلى إســـرائيل نتيجـــة (الانتصارات العربية) ، ولكن الواقع أن هذه التنبؤات لم تتحقق إلاّ بشكل محدود .

ومن ينظر في الموجات السابقة للهجرة ويبحث عن أسباب ارتفاعها وانخفاضها على ضوء الظـــروف الـــسياسية المختلفة يلاحظ أنه كلما نجحت الصهيونية العالمية في إقناع يهود العالم بأن وضع (إسرائيل) سيستقر كانت أقدر على جلب المزيد من المهاجرين إلى فلسطين . وقد كان عامل (الاعتماد على القوة) في فرض إسرائيل ما تريد على العرب هو الذي يلعب الدور الرئيسي في عملية الإقناع المذكورة ، كما حدث بعد حربي ٤٨ و٥٦م . وأما بعد حرب ٦٧م فرغم النصر العسكري كان واضحاً أن الوضع الجديد لن يستقر على المدى البعيد فانخفض المعدل الوسطيّ للـــهجرة نتيجة لذلك .. بينما نجد اليوم أنّ عامل (الاعتماد على الصلح) هو الذي سيلعب الدور الرئيسي في إقنـــاع اليهـــود باستقرار وجود إسرائيل فإذا تأكد هذا الصلح وتحققت (التسوية السلمية) فلا شك أن معدل الهجرة سيرتفع بـــشكل قوي . وكان هذا المعدل قد سجل نقصاً ملحوظاً في الآونة الأخيرة نتيجة ضعف عامل (القوة) بعـــد حـــرب ٧٣م وعدم ثبات عامل (الصلح) إلى اليوم .

وقد بلغت نسبة هذا النقص عام ٧٤م حوالي ثلث المعدل الوسطي للهجرة في الموجة الحالية ، إذ كـــان مجمـــوع المهاجرين إلى إسرائيل (٣٢) ألفاً منهم (١٤) ألف يهودي سوفييتي أي حوالي (٤٤%) ، كما أنـــه لم يهـــاجر إلى إسرائيل في الفترة من كانون الثاني/يناير إلى آذار/مارس عام ٧٥م سوى (4.800) ، كان نـــصفهم مـــن الاتحـــاد السوفييتي[٥] .

ويتبين مما سبق أن مجموع عدد المهاجرين إلى إسرائيل في الموجة التاسعة الحالية بلغ إلى نهاية آذار/مارس ١٩٧٥م حوالي (١٩٩) ألف مهاجر ، منهم (١٠١) من الاتحاد السوفييتي ، أي ما يعادل (٥١%) . وتأتي رومانيا في المرتبـــة الثانية بين دول المعسكر الشرقي من حيث السماح بهجرة اليهود إلى إسرائيل[٦] .

كما يتبين أن المخطط الصهيوني للسبعينات على صعيد الهجرة قد حقق الجزء الأكبر مـــن أهدافـــه ، فالمعـــدل الوسطي السنوي لهذه الهجرة يزيد على (٤٧) ألفاً سنوياً ، ويعني هذا أن عدد المهاجرين حتى عام ١٩٨١م قد يبلـــغ نصف مليون يهودي .

وتبدو خطورة الموجة التاسعة الجديدة للهجرة اليهودية إلى فلسطين من خلال مقارنتها بالموجات السابقة .

وكان المعدل السنوي للهجرة في كل من هذه الموجات في تصاعد مستمر على النحو الآتي :

في الموجة الأولى (٣) آلاف سنويا

في الموجة الثانية (٤) آلاف سنويا

في الثالثة (١٠) آلاف سنويا

في الموجة الرابعة (١١) ألفاً سنويا

في الموجة الخامسة (١٩) ألفاً سنويا

في الموجة السادسة (١٤٠) ألفاً سنوياً ، بعد تأسيس الدولة اليهودية .

في الموجة السابعة (٥٠) ألفاً سنوياً ، بعد حرب السويس .

وانخفض هذا المعدل في الموجة الثامنة ورغم نكبة عام ١٩٦٧م إلى حوالي (٢٨) ألفاً سنويا

ويعود إلى الارتفاع في الموجة التاسعة التي نشهدها ليصبح -كما ذكرنا- (٤٧) ألف مهاجر في العام .

ولا تزال الموجة التاسعة في مطالعها حالياً ، ولا تزال جهود اليهود مستمرة لدعمها وتقويتـــها . ومـــن يتتبـــع الاتصالات السوفييتية الإسرائيلية الأخيرة على مستوى السفراء وفي واشنطون بالذات ، ويتتبـــع تطـــور العلاقـــات (التجارية) بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي وسكوت حكومة واشنطون على الصفقات على عقدها موسكو مباشرة مع شركات أمريكية لشراء الحبوب منها وما لذلك من علاقة بهجرة اليهود السوفييت .. وينظـــر إلى الجانب العربي فيفتقد وجود تخطيط مدروس أو منهج محدد لمواجهة الأمر بما هو جدير به من جهود وتـــصميم .. إنّ من ينظر إلى هذا كله لا يسعه إلاّ أن يتوقع تصاعد حجم هذه الهجرة خلال السنوات القادمة بشكل قوي

ومن خلال التأمل في التناسب الطردي القائم بين معدل الهجرة السنوي إلى إسرائيل وبين اســـتقرار أوضـــاعها السياسية والاقتصادية لا نحتاج إلى كثير من البحث والتفكير لندرك أن (التسوية السلمية) وما يتبع لها .. ستجعل هذا المعدل السنوي يصعد صعوداً كبيراً يزيد في خطورته ويضاعف من نتائجه القريبة والبعيدة كما يزيد دعامة الهجرة إلى إسرائيل -وهي الدعامة الرئيسية لوجودها- قوة وثباتا . ولن يستطيع أحد آنذاك عقد الآمال على ما يسمى بالهجرة المعاكسة إلى خارج إسرائيل والتي لم يكن معدلها الوسطي يزيد في أقصى الأحوال على ١٠% ، فإذا كانت الخطـــط الصهيونية تستهدف جلب (٧٠٠) ألف يهودي في الموجة الحالية وعاد من هؤلاء سبعون ألفاً فإن ذلك لن يـــضعف خطورة الموضوع بحال من الأحوال .

وتزداد خطورة هذه الموجة أمامنا وضوحاً ونحن نرى عجز إسرائيل عن استيعابها ، ولا سيما إذا عادت إلى حدود ١٩٦٧م التي يريد الحكام العرب الاعتراف بها ثمناً لـ (التسوية السلمية) .

ولكن إسرائيل وهي تخطط لمزيد من الهجرة لا تغفل عن التخطيط لمزيد من التوسع باغتصاب مزيد من الأرض .

وهذا هو جوهر القضية التي نواجهها .

ولا بد لكل من يريد أن يخدم قضية فلسطين –لا أن يستخدمها– من العودة بها إلى جوهرها الحقيقي وجـــذورها الأصلية . ويكفيه الإقرار بذلك إذا عجز من بعدُ عن بذل الجهد وتقديم التضحيات في سبيلها .

إنّ أمتنا وبلادنا تواجه قضية مصيرية لا يجوز أن تكون موضع المساومة بأيّ شكل من الأشكال ..

لا تجوز المساومة في قضية الحق والعدالة والمصير

وقضية الشعب والأرض والتاريخ

قضية التحرير الكامل والعودة إلى الوطن السليب .

---

(١) عن صحيفة : (نويه تسوريخر تسايتونج Neue Züricher Zeitung) العدد الصادر يوم ٧٤/١٠/٢٣م وكتاب :

(Israel), Hg.: K. Sontheimer, Piper-Verlag - 1968, Seite 319.

(٢) عن (مجلة فلسطين) السنة ١٣ العدد ١٤٦ ربيع الثاني ١٣٩٣هـ – أيار/مايو ١٩٧٣م ، تصدر عن (الهيئة العربية العليا لفلسطين) في بيروت .

(٣) يراجع في موضوع اليهود في الاتحاد السوفييتي الفصل الثالث من كتيّب : (الاتحاد السوفييتي وقضية فلسطين) الصادر عن مركـــز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت ، في سلسلة (دراسات فلسطينية) رقم (٣٠) ، بتاريخ حزيران/يونيو ١٩٦٨م

(٤) الكتاب الإحصائي (Weltalmanach) عام ٧٣ و٧٤ ٧٥م ، دار نشر فيشر بألمانيا الغربية ، ونـــشرة (الأرض) العـــدد ١٨ ، حزيران ٧٤م ، مؤسسة (الأرض للدراسات الفلسطينية) في دمشق .

(٥) صحيفة (آلجيماينه يوديشه فوخن تسايتونج .Allgemeine jüdische W. Z) .

(٦) وقد صرّح الرئيس الروماني (تشاوسيكو) أمام عدد من نواب (الكونجرس) الأمريكي في واشنطون يوم ٧٥/٠٦/١٠م بأن أكثـــر من (٣٠٠) ألف يهودي روماني من أصل (٤٠٠) ألف يعيشون في رومانيا قد غادروها إلى الآن ، وأكد للنواب الأمريكيين ولزعماء المنظمات الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية على أن بلاده لا تعرقل هجرة اليهود منها إطلاقا .